الجوانب الاجتماعية

في كتاب البخلاء للجاحظ (ت٢٥٥هـ)

(دراسة تحليلية)

أ . م . د . أحلام محسن حسين*

● المقدمة:

يأخذ هذا النوع من الدراسات أهميته في مجال الدراسات الاجتماعية التي تقوم على اساس دراسة تأثير التآلف الاجتماعي من زاوية آخرى لما كان سائداً في عصر الجاحظ من اتجاهات أجتماعية كان له تحديد نوع الاجتهادات في تعريف انماط السلوك البشري في الحياة الاجتماعية لعصره الذي وضحه من خلال كتابه (البخلاء) وذلك من خلال عدة ابعاد كان لها اثرها على الحياة الاجتماعية لانه اهتم بعرض عدد من المظاهر الاجتماعية التي كان لها اثرها على بيئته في كتابه هذا، اي انه قرب واقع بيئته في جميع صورها الاجتماعية بشكل دقيق. لهذا الكتاب أهمية علمية لانه يكشف لنا عن جملة من طبائع البشر في جميع احوالها النفسية وطبائعهم وسلوكهم فضلاً عن دراسة قضايا اخرى لها اثرها في المجتمع آنذاك،إذ كان موسوعة علمية اجتماعية بالدرجة الاولى اجتمعت فيها كل شروط العلم والمعرفة رغم بعض الخيال الذي كان متوارداً فيه الا انه عكس لنا شخصية الجاحظ العلمية المتميزة في الكتابة وتناول مثل هذه القضايا ومناقشتها باسلوب ادبي متميز فيه الصيغة الاجتماعية التي امتزجت معه واظهر ذلك من خلال نصوص الكتاب التي اعتمدها وناقش فيها هذه الجوانب.

* مركز احياء التراث العلمي العربي / جامعة بغداد

ولا سيما انه اعتمد فيه على تلك القصص والاخبار التي وردت عند معاصريه او السابقين له التي تمثل رؤية معاصرة للفكر الخلاق في كل جوانبه الاجتماعية .

اولا: المنهج العام لكتاب البخلاء[١]

يعد كتاب البخلاء للجاحظ من الكتب المهمة التي كان لها أثرها الاجتماعي في عصره لأنه قدم فيه معالجات فنية لبعض الظواهر الاجتماعية العامة في مجتمعه بأسلوب أدبي متين كان له اثره في البناء الفني لصياغة تلك الظواهر الاجتماعية، ولا سيما انه اعتمد فيه على تلك القصص والأخبار التي وردت عند معاصريه أو السابقين له التي تمثل عصارة الفكر الخلاق، أي انه موسوعة علمية بأسلوب أدبي كما يقول عنه الجاجري «يراها الناس أحيانا ثم ينسبه إلى غيره، وما كانت هذه الغاية إلا نوعاً من العبث بخصومه، أو الرغبة في إذاعة ما يكتبه وترويجه، ومثل هذا لا يبلغ مبلغ ذلك الحافز الفني الذي يحفزه إلى وضع الأحاديث إرضاء لتلك النزعة الغالبة عليه»[٢].

كان كتاب الجاحظ هذا ذا تأثير اجتماعي لأنه تناول فيه موضوعات صورت لنا بعض الجوانب التي كان لها اثرها في المجتمع آنذاك، وطبع عليها الزمن طغراء الجاحظ[٣]، وأشار الجاحظ الى الأسباب والدوافع التي دفعته الى تأليف كتابه هذا قائلاً «... إذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشحاء، وما يجوز من ذلك في باب الهزل، وما يجوز منه في باب الجد، لأجعل من الجد مستراحاً، والراحة جماماً، فأن للجد كدّا، يمنع من معاودته، ولا بد لمن إلتمس نفعه من مراجعته»(م.ن،ج١،ص٦)، مشيراً الى المواضيع التي تناولها في كتابه هذا في جملة من التناقضات بين البخل والكرم والمدح والذم،كما يقول «وذكرت ملح الحزامي واحتجاج الكندي، ورسالة سهل بن هارون، وكلام ابن غزوان وخطبة الحارثي، وكل ما حضرني من اعاجيبهم واعاجيب غيرهم ولم يسموا البخل صلاحاً، والشح اقتصاداً، لم حاموا على المنع ونسبوه الى الحزم، ولم يضوا للمواساة، وقرنوها بالتصفيع، لم جعلوا الجود سرقةً والاثرة جهلاً، ولم زهدوا في الحمد، وقل احتفالهم في الذم، ولم استضعفوا من هش للذكر، وارتاح للبذل، ولم حكموا بالقوة لمن لايميل الى الثناء، ولا ينحرف عن هجاء، ولم احتجوا بظلف العيش على لينه، وبحلوه على مره، ولم يستحيوا من رفض الطيبات في رحالهم مع استهتارهم بها في رحال غيرهم، ولم اختاروا ما يوجب ذلك، مع انفتهم من ذلك الاسم، ولم رغبوا في الكسب، مع زهدهم في الانفاق، ولم عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى، ولم يفعلوا في الغني عمل الراجي لدوام الغني، ولم وفرو نصيب الخوف، وبخسوا نصيب الرجاء، مع طول السلامة العامة وشمول العافية، والمعافى اكثر من المبتلى وليست الحوائج اقل من الفوائد» (م.ن،ج١،ص٦-٧).

ومن جملة الاهداف التي وضحها الجاحظ في الكتاب ولها اثرها الاجتماعي الذي عالجه من خلال النصوص التي اوردها للظواهر ذات المغزى المتناقض كما يقول في باب السعادة التي تمثل احد

اوجه الشعور النفسي الذي يعتري الفرد ويؤثر عليه وعلى مجمعته كما يقول «... كيف يدعو الى السعادة، من حض نفسه بالشقوى فكيف ينتحل نصيحة العامة، من بدأ بغش الخاصة، ولم احتجوا مع شدة عقولهم، بما اجمعت الامة على تقبيحه، ولم فخروا مع اتساع معرفتهم، بما اطبقوا على تهجينه، وكيف يفطن عند الاعتلال له، ويتغلغل عند الاحتجاج عنه، الى الغايات البعيدة، والمعاني اللطيفة، ولا يفطن لظاهر قبحه، وشناعة اسمه وخمول ذكره وسوء اثره على اهله...»(م.ن،ج١،ص٧)، وكذلك اشار الى بعض الصفات التي يقوم بها الافراد الذين يهدفون الى اصلاح المجتمع وهم لا ينفذون ما يدعون له من خلال العيش، كما يقول:

«... فكيف يتحل نصيحة العامة من بدأ بغش الخاصة...»(م.ن،ج١،ص٧)، وكذلك الانتقاض من الافراد رغم معرفتهم وعلمهم الأنه تم النيل منهم من قبل الامة والمجتمع، كما يقول«... ولم أصبحوا مع شدة عقولهم، بما اجمعت الامة على تقييمه، ولم فخروا مع اتساع معرفتهم ايما اطبقوا على تهجينه. . . »(م.ن،ج١،ص٧).

ويذهب الى ابعد من ذلك عند الاعتلال والاحتجاج الى غايات بعيدة لها اثرها على اهله، كما يقول «... وكيف يفطن عند الاعتلال له، ويتغلغل عند الاحتجاج عنه، إلى الغايات البعيدة والمعاني اللطيفة ولايفطن لظاهر قبحه، وشنعة اسمه وخمول ذكره وسوء اثره على اهله»(م.ن،ج١،ص٧).

وغيرها من المتناقضات التي طرحها الجاحظ، وكان لها اثرها الاجتماعي انذاك لانها كانت تمس الفرد الذي يمثل جزء هام من المجتمع في كل ما يتعلق به من الصفات التي علل فحواها الجاحظ ما بين هذا الاتجاه وغيره كما يقول مستعملاً بعض الالفاظ الدالة على ذلك منها: قلت كما يقول « وقلت: فبين لي ما الشيء الذي خبل عقولهم وافسد اذهانهم، واغشى تلك الابصار ونقض ذلك الاعتدال ؟ وما الشيء الذي عاندوا الحق، وخالفوا الامم، وماهذا التركيب المتضاد !! والمزاج المتنافي وما هذا الغباء الشديد، الذي الى جنبه فطنة عجيبة، وما هذا السبب الذي خفي به الجليل الواضح، وادراك به الدليل الغامض، وقلت: وليس عجبي ممن خلع عذاره في البخل، وابدي صفحته للذم ... كعجبي فمن قد فطن البخل، وعرف افراط شحة، وهو في ذلك يجاهد نفسه ويغالب طبعه، ولربما ظن ان قد فطن له وعرف ما عنده، فموه شيئاً لا يقبل التمويه ... وبعد فما باله يفطن لعيوب الناس اذا أطعموه ولا يفطن لعيب نفسه اذ أطعمهم وان كان عيبه مكشوفاً وعيب من أطمعهم مستوراً»(م.ن،ج١،ص٧-٨).

الاتجاهات الاجتماعية التي تناولها الجاحظ في الكتاب من خلال مصادرها.

عمل الجاحظ في كتابه (البخلاء)على عرض بعض الاتجاهات الاجتماعية لمجتمع كامل منها البخل في كل اصنافه وطرقه وكان له الدور الرئيس في هذا العرض مصوراً بعض الاحداث مستعملاً في ذلك الفاظاً دالة على النقل الذي كان يقوم به من خلال ايراد تلك الاحداث من خلال نصوص منها (حدثني، اخبرني، سمعت) وهي روايات الأخبار في الكتاب، كما يقول «وحدثني

ابراهيم بن السندي، قال: كان على ربع الشاذروان شيخ لنا من أهل خراسان وكان معجماً بعيداً عن الفساد ومن الرشاة، ومن الحكم بالهوى، وكان حفياً جداً، وكذلك كان في امساكه، وفي بخله وتدنيه في نفقاته، وكان لا يأكل الا ما لابد منه، ولا يشرب الا مالا بدله منه»(م.ن،ج١،ص٢٢)، وقوله «حدثني صاحب لي قال: دخلت على فلان بن فلان واذا المائدة موضوعة، بعد واذا القوم قد اكلوا ورفعوا ايديهم فمددت يدي لآكل، وقال: اجهز على الجرحى ولا تتعرض للأسماء، يقول: اعرض للدجاجة التي قد نيل منها، وللفرخ المنزوع الفخذ، فأما الصحيح فلا تتعرض له، وكذلك الرغيف الذي قد نيل منه واصابه بعض الرق وقال لي هذا الرجل: اكلنا عنده يوماً وابوه حاضر له يجيء ويذهب فاختلف مراراً كل ذلك يرانا نأكل: فقال الصبي: كم تأكلون ؟ لا اطعم الله بطونكم، فقال ابوه وهو جد الصبي ابني ورب الكعبة يقصد مثله بالبخل»(م.ن،ج١،ص٣٥)، وسمعت كما يقول « قال اسماعيل وسمعت الكندي يقول: انما المال لمن حفظه، وإنما الغني من تمسك به وتحفظ المال بنت الحيطان، وغلقت الابواب، واتخذت الصناديق فعملت الاقفال، ونقشت الرسوم والخواتيم، ويعلم الحساب والكتاب» (م.ن،ج١،ص٦٨)، وقوله « قال اسماعيل: وسمعته يقول: عجب لمن قلت دراهمه كيف ينام ...»(م.ن،ج١،ص٦٩)، واخبرني كما يقول «حدثني محمد بن حسان الاسود، قال: اخبرني زكريا القطان، قال: كان للغزال ارض قدم حانوني ... »(م.ن،ج١،ص٩٥).

أما الروايات الاخرى التي نفلها الجاحظ نقلاً عن اصحابها وهذا الامر الذي يزيد من دقة الرواية والوثوق بها فاستعمل ألفاظا منها « قال، حكي، قالت » وكانت اغلبها مدعومة بالسند والرواية، ومنها استعمل حكى قائلاً «وحكى ابو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام عن جارة المروزي، أنه كان لا يلبس خفاً ولا نعلا، الى ان يذهب النبق اليابس، لكثرة النوى في الطريق والاسواق، قال: ورآني مرة مصصت قصب سكر، فجمعت ما مصصت مادة لأرمي به، فقال ...»(م.ن،ج١،ص٢٥).

واستعمل لفظ «قالت» كما يقول « وقالت له أمرأة: ويحك يا ابا القمامم، إن قد تزوجت زوجاً نهاريا، الساعة وقته، ولست على هيئة، فاشترلي بهذا كيف آسا، وبهذا الفأس دهناً فانك تؤجر، فعسى الله ان يلقي محبتي في قلبه فيرزقني على يدك شيئاً اعيش به فقد والله ساءت حالي، وبلغ المجهود مني فأخذهما وجعله وجهه (م.ن،ج١،ص١٠٠)، ولفظ «قال » كما يقول «قال: ويكون الزائر من أهل البصرة عند الآبلى مقيماً مطمئناً، فاذا جاء المد، قالوا: ما رأينا مداً قطاً ارتفع ارتفاعه وما اطيب السير في المد او تسير في المد، الى البصرة، اطيب من السير في الجزر الى الابله، ويسافر فلا يزالون به، حتى يرى ان من الرأي، ان يغتنم ذلك المد بعينه ويسافر»(م.ن،ج١،ص١٠١)

وكان في بعض الاحيان عندما يستعمل هذه الالفاظ في نقل الرواية يشير الى اسم صاحب الرواية كما يقول. « حدثني المكي: قال بت عند

اســماعيل بن غــزوان .. وأنما بيتنــي عنده، حين علم اني تعشــيت عند مويس، وحملت معي قربة نبيذ، فلما مضى من الليــل اكثره، وركبني النوم، جعلت فراشي البســاط، ومرفقتــى يدي، وليس في البيــت إلامصلى له مرفقة ومخدة، فأخذ المخدة فرمى بها الي، فأبيتها ورددتها عليه، وابى وابيت، فقال: ســبحان اللــه يكون ان تتوســد مرفقك، وعنــدي فضل مخدة، فأخذتهــا فوضعتها تحت خدي، فمنعني من النوم انكاري للموضع ويبس فــراشي»(م.ن،ج١،ص١٠٥)، او يشــير الى نقل الرواية من اكثر من واحد حســب تسلسل السند الذي نقــل منه،كما يقــول» وحدثتــي الحزامي والمكي والعروضي قالوا: سمعنا اسماعيل يقول: أوليس قد اجمعوا على ان البخلاء في الجملة اعقل من الاســخياء في الجملــة وما نحــن اولاء عندك جماعة، فينا من يزعم الناس انه سخي وفينا من يزعم الناس انه بخيل، فانظر اي الفريقين اعقل ها انا ذا وســهل بن هارون، وخلقان بن صبيح، وجعفر بن ســعيد، والحزامي والعروضي، وابو يعقوب الخزيمي، فهل معك إلا ابو الاسحاق ؟ » (م.ن،ج١،ص١٠٥).

وايضــاً ينقل من قول راوٍ عــن آخر،كما يقول «. . . وحدثني المكي قال: قلت لإسماعيل مرة، لــم أرَ أحدا قط أنفق على الناس من حاله، فلما إحتاج إليهم أســوء، قال: لوكان مــا يصنعون للــه رضي وللحــق موافقــاً لمــا جمع اللــه لهم الغدر واللؤم، مــن اقطار الارض ولو كان هذا الانفــاق في حقه لما ابتلاهم اللــه جل ذكره من جميع خلقه» (م.ن،ج١،ص١-٥).

او تراه يشــير الى حديث كما يقول انه سمعه من تلــك الحكايات التــي تناول جملة مــن القضايا الاجتماعية «او حديث ســمعناه على وجه الدهر، زعمــوا ان رجلاً قد بلغ في البخــل غايته، وصار اماماً وانه كان اذا صــار في يده الدرهم، خاطبه وناجاه وفداه واستنبطنه وكان مما يقول له: كم من ارض قد قطعــت، وكم من كيس قد فارقت، وكم من خامل رفعت ! ومن رفيع قد اخملت ! لك عندي ان لاتعرى ولا تضحى، ثم يلقيه في كيســه ويقول له: اسكن على اسم الله، في مكان لا تهان ولا تــذل ولا تزعج منه وأنه لم يدخل فيه درهماً قط فأخرجه» (م.ن،ج١،ص١٠٦).

واشــار الى بعــض اصحاب المصــادر الذين نقل عنهــم من غــير ان يذكر اســماءها كمــا يقول «قــال الاصمعــي او غيره، حمــل بعض الناس مــد يتراً على بــرذون فأقامه عــلى الاري فانتبه مــن نومه فوجده يعتلف فصاح بغلامه: يا ابن ام بعــه وإلا فهبه وإلا فرده فأذبحه! انام ولا ينام؟ يذهب بحر مالي؟ ما اراد الاســتئصالي!» (م.ن،ج١،ص١٠٧)، وقولــه « قال رافع بن هريــم تحلبُ قاعداً، وتلجُ احياناً وقعبكَ حاضرُ يدعــو اللــه عليــه ان يجعله صاحب شــاه ولا يجعلــه صاحب ابــل، وأن يرتضع من صاحب ابــل الخلــف، وان كان معــه أنــاء. والعربــي يمــاري صاحبــه فيقــول: ان كنــت كاذبــاً، فاحتلبت قاعــداً: اي ابدلك الله بكرم الابل لؤم الغنم...»(م.ن،ج١،ص١١٢-١١٣)،وقولــه «قــال ابــو ســعيد: اما مــا ذكرتم مــن انتقاض البــدن، فــان الذي اخــاف على بدني مــن الدعة

ومــن قلة الحركة اكثر. وما رأيت اصح ابدانا من الحمالين والطوافين، والقوم قبل ان يموتوا، لم يكن لهم تلك عبــادة أو ليس يقول الناس: والله لفلان اصــح من الجــلاوزه؟ (يعني اختــلاف الجلاوزة في العــدو)، ولربمــا أقمت في المنــزل لبعض الامر، فاكثر الصعود والنزول، خوفاً مــن قــلة الحركة» (م.ن،ج١،ص١١٤).

ويؤكــد مــن خلال ذلــك صحة مصــدر الرواية لنفس المؤلف، كما يقول (فهذا حديث ابي سعيد) (م.ن،ج١،ص١١٤)، او يشير الى اسم المصدر كما يقول « وجاء في الاثر: ان اهل المعروف في الدنيا اهل المعروف في الآخرة»(م.ن،ج١،ص١٢٠)، واستعمل لفظ ايضاً (م.ن،ج١،ص١٥٠) او يستعمل بعض الالفــاظ العامة نقــلاً عن بعض الاقــوام وغيرهم مستعملاً الفاظاً وعبارات دالة على ذلك منها قوله « وقالت العرب: انا كم اخوكم يستتمكم، فأتموا له. وقالــوا: مانع الاتمام لوم .وقالوا: البخيل ان ســأل الحف،وان سأل سوف. وقالوا: ان سئل مجد، وان اعطى حقد. وقالوا يريد قبل ان يسمع، ويغضب قبــل ان يفهم. وقالوا: البخيل اذا ســال ارتز،واذا ســال الجواد اهتز. وقــال النبي «صــلى الله عليه وسلم» ينادي كل يوم مناديان من السماء يقول احدهما: «اللهم عجل لمنفق خلفا ويقول الاخر: اللهم عجل لممسك تلفا...»(م.ن،ج١،ص١٤٨)، وقوله في قول العامة « فأن قضيتم بقول العامة فلعامة ليســت بقدوة. وكيف يكون قدوة من لا ينظــر ولايحصل ولايفكر ولايمثــل وان قضيتم باقاويل الشــعراء وما كان عليــه اهل الجاهلية الجهلاء، فما قبحوه مم لا يشك فيه حسنه،اكثر مــن ان تقف عليه،او نتشــاغل باســتقصائه » (م.ن،ج١،ص١٥١٧)، وآخــر « وقــال آخــر: اشــتهي ثريدة دكناء من الفلفــل، ورقطاء من الحمــص ذات حفافين من اللحــم، لها جناحان من العراق، اضرب فيها كما يضرب والي السوء في مال اليتــم »(م.ن،ج١،ص١٥٩). والشــاعر كما يقول « وقد قال الشــاعر:

الا ليت خبزا قد تسربل رائبا

وخيلا من البرني فرســانها الزبد

ولهــم البرمــة والخلاصــة والحبــس والوطيئة» (م.ن،ج١،ص١٦٨)، و« وقال بعض الشــعراء ...» (م.ن،ج١،ص١٦٩)، و« ولذلك قال شاعرهم ...» (م.ن،ج١،ص١٨٣)، و« قــال اعرابــي: اتينــا بــبر كأفــواه البعران،وخبزنــا منه خبــزة زيت في النار،فجعل الجمر يتحدر عنها تحدر الحشو عن البطان،ثم ثردناها...» (م.ن،ج١،ص٢٣٠)، « وقال بعض التميمي وهو يجو بن جبار:

لو ان قدرا بكت من طولي ما حبست

على الحفوف بكت قدر ابن جبار

ما مسها دسم مذ فض معدتها

ولا رات بعد نارالقين من نار »

(م.ن،ج١،ص١٦٩). وتــراه ايضــاً يؤكــد صحــة الــكلام المنقــول وهــذا جزء مــن منهجــه في نقد الروايــات « وقــد صدق قــول القائل: مــن احتاج اغتفر، ومن اقتضى تجوز وقيل لريسيموس نأكل في الســوق ؟ قال: ان جاع(ريسيموس) في السوق اكل في الســوق، وقال من اجدب انتجع، ومن جاع جشــع ...» (م.ن،ج١،ص٢٣٠)، او تراه يشــك في قول احدهم مستعملاً لفظ زعم « اوزعم سري بن

مكـرم، وهو ابن اخي موسى بن جنـاح، قال: كان موسى يأمرنا الأنكال مادام احد منا مشغولا بشرب الماء وطلبـه...»(م.ن،ج١،ص١٨١-١٨٢)، وقوله «زعم ابو يعقوب الخزيمي ان جعفر بن يحيى اراد يوما حاجـة كان طريقه اليها على باب الاصمعي، وانه دفع الى خادم له كيسـا فيـه الف دينار وقال لـه: ماتزال في رجعتي الى الاصمعي، وسـيحدثني ويضحكني .فاذا رأيتني قد ضحكت فضع الكيس بين يديه »(م.ن،ج١،ص١٩٢-١٩٣).

وفي بعـض الحـالات نـراه لا يحـدد اي اسـم لمصـدر روايته مسـتعلاً الفاظاً وعبـارات دالة على ذلـك لنفس النص، منها قوله «ثم يقبل على الاخـر فيقول: يافلان، ما أدمـك فيقول اكثر ما تـآكل لحوم الجـزور، وتتخذ منها هـذه القلايا ونجعل بعضها شـواء. قال: فتأكل من اكبادها واسـنتها، وتتخذ لـك الصباغ؟ قال:نعـم. . . » (م.ن،ج١،ص٢٠٣).

وقوله « ثم يقيل على الذي يليه فيقول: انا فلان، مـاأدمـك...»(م.ن،ج١،ص٢٠٠).

وقولـه (ثم يقول للذي يليه: انا فلان ما ادماك ؟ فيقول: الشبارقات والاخصة والفالوذجات، قال طعام العجم، وعيش كـسرى ولباب البر بلعاب النحل بخالص السـمى حتـى اني على آخرهم.: بئـس العيش هذا! ليس هذا عيـش آل الخطاب كان بـن الخطـاب يـضرب عـلى هـذا، كل ذلك يقول: اكثر مـا تأكل لحوم الجزور،وتتخذ منها هذه القلايا ونجعل بعضها شـواء. قال: افتأكل من اكبادها واسنتها،وتتخذ ذلك الصباغ ؟ قال: نعـم. . . . .»(م.ن،ج١،ص٢٠٠) .

ثالثـاً: الجوانب الاجتماعية في كتـاب البخلاء / دراسة تحليلية .

تعـددت الاتجاهـات التـي يمكن دراسـتها في (كتـاب البخلاء) وفقـاً لتأثيرها الاجتماعي سـواء كان في الاسـلوب او النظـر العينيـة، لأنه قد سـلك مـن خلالها منهجـاً عمد فيه الى الحفـاظ على وحدة الفكرة وطرحه اسـنادها مـن خـلال المصـادر التـي نقلت منهـا، وقد امتزجـت هذه مـع فكرة وشـخصية الجاحظ الـذي تميـز فيهـا الى حـد لفـت الانتبـاه الى رواياتـه التـي يرويها ضمن سـلوكيات افراد المجتمع،كما يقول « فقسـموا الامور كلها على الديـن والدنيا ثـم جعلوا احد قسـمي الجميع الدرهـم، وقال ابـو بكر الصديـق (رضي الله عنـه): اني لا بغـض اهل البيـت ينقون رزق الايـام في اليـوم، وكانوا يبغضـون اهل البيت اللحامين » (م.ن،ج١،ص١٦)، وهذا السـلوك الـذي يقف من خلاله على دخائل قلبه، اي انه رسم الشـخصية الطيبة التي جعلها اقرب الى الواقع من حيث حسـن الخلق ومـا يتعلق بها كمـا يقول« ... كان من اطيب الخلق واملحهم بخلاً، واشـدهم ادباً دخل عـلى ذوي اليمنين طاهر بن الحسـين، وقد كان يعرفه بخرسان بسـبب الـكلام . فقال لـه منذ كم انـت مقيم بالعـراق يا ابا عبدالله ؟ قال: انا بالعراق منذ عشريـن سـنة، وأنا اصوم الدهـر منذ اربعين سـنة قال فضحك طاهر وقال: سـألناك يا ابا عبـد الله عن مسـألة واجبتنا عن مسـألتين » (م.ن،ج١،ص٢٠).

وهنا تراه حدد الشخصية بين ثلاثة اتجاهات واحدة تعتمد على الاخرى في بعض الملامح، اي انه يصنع من هذه الشخصية إنموذجاً يستطيع ان تقوم كل ما تريده . اي انه الجاحظ يكون قد تقل شخصيته من الواقع حسب ما رواه، عندما جسد شخصية ابو عبد الله(م.ن،ج١،ص٢٠)، هي غير شخصية ابن ابي كريمة(م.ن،ج١،ص١٧)، وفي الكتاب جانب اخر بصورة المطبخ وادبه كما اشار في ذلك (...فما جعت ولا اشتهيت الغذاء، في ذلك اليوم الى الطهر، ثم ما فرغت من غذائي وغسل يدي، حتى قاربت العصر. فلما قرب وقت غذائي من وقت عشائي، طويتُ العشاء وعرفت قصدي »(م.ن،ج١،ص٢٧)، وفي ضوء هذا الاتجاه يصور لنا واحدة من حالات البخل كما قول « فقالت للعجوز: لم لا تطبخين لعيا لنا في كل غداة نخالة فان ماءها جلاء وقوتها غداء وعصمة، ثم تجغفين بعدُ النخالة فتعود كما كانت فتبيعين اذا الجميع يمثل الثمن الاول، ونكون قد ربحنا فضل ما بين الحالتين . قالت: أرجو ان يكون الله قد جمع بهذا السعال مصالح كثيرة لما فتح الله لك بهذه النخالة التي فيها صلاح بدنك وصلاح معاشك، وما اشك ان تلك المشورة كانت من التوفيق»(م.ن،ج١،ص٢٧.).

ان هذا الإنموذج يقودنا الى تخصص نوع محدد منها واثره الاجتماعي في المجتمع ولا سيما انه امام مجتمع كامل يعرض البخل بشتى أصنافه ومارس الجاحظ الدور الرئيس في التعبير عن هذا المجتمع من خلال الواقعية التي اتسم بها اسلوبه[٤]، بعيداً عن الخلط مع النماذج الاخرى التي تطرق اليها الجاحظ في كتابه اي انها بسبب حالة فردية في المجتمع او جماعة كبيرة على مستوى الطبقات ممن كان لهم اثرهم على المجتمع انذاك، كما يقول الجاحظ « وان وجدتم في هذا الكتاب كناً، ! وكلاما غير معرب، ولفظاً مدلولا عن جهته، فاعلموا انا انما تركنا ذلك، لان الاعراب ببعض هذا الباب ويخرجه من حده، الا ان احكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء، واشحاء العلماء، كسهل بن هارون واشباه»(م.ن،ج٢،ص١٢٧).

وعلل في قصة ليلي الناعطية لظاهرة كان لو عرف عيبها لتنبه الى ضعفه عن علاج نفسه كما يقول « .. فانها مازالت ترفع قميصاً لها وتلبسه حتى صار القميص الرقاع، وذهب القميص الاول...»(م.ن،ج٢،ص١٢٥)، وهنا في نحو اخر يمثل لنا الجاحظ السذاجة في شخصية البخيل ومردود اثرها على المجتمع لانه لم يعتمد على الفاظ معينة في صنع المفارقة وانما على العكس هي المفارقة التي صنعت الالفاظ، كما اشار الى ذلك عندما قدم نوعاً من المقارنة بين البخلاء وطريقة سخاءهم قائلاً: "وحدثني الخزامي والمكي والعروضي قالوا: سمعنا اسماعيل يقول: او ليس قد اجمعوا على ان البخلاء في الجملة اعقل من الاسخياء في الجملة؟ ها نحن اولاء عندك جماعة، فينا من يزعم الناس انه سخي، وفينا من يزعم الناس أنه بخيل، فانظر اي الفريقين أعقل؟

ها انا ذا ســهل بن هارون وخاقان بن صبيح، وجعفر بن سعيد والخزامي والعروضي، وابو يعقوب الخزيمي فهل معك إلا ابو الاســحاق» (م.ن،ج١،ص٧٩).

وهناك صور لوصول البخيل الى حد الشــح كما صورهــا لنا الجاحظ اذ يقــول « قالوا: دعا عبد الملــك بن قيس منح النقود عــلى الطعام الذئبي رجلاً مــن اشراف اهل البصرة . وكان عبد الملك بخيلا على الطعام، جواداً بالدرهم، فاستصحب الرجــل ســاكن . فلمــا رآه عبد الملــك ضاق به ذرعاً. فاقبل عليه فقــال له: الف درهم خير لك من احتباســك علينا! واحتمل غررم الف درهم، ولم يحتمل اكل رغيــف!»(م.ن،ج٢،ص١٧٢).

وهــذه حجــة ابتدعهــا البخيــل كــي لا يطعــم الرجل، وهنا تظهر المفارقة في الاصل عدم النية في اطعام الرجل ولامنحه النقود.

كمــا اورد عن العلاقــة التي تكون بــين البخل والبخيل وما هي المفارقات التي يحصل بينهما كما صورها الجاحظ في بعض النصوص قائلاً: «... قد اخبرتك ان عينك مالحة، وانك ستصيبني بعين! قلت: وما بينتــه هذا من العين؟ قال انما العين مكروه يحدث . فقد انزلت بناعينك اعظم المكــروه فضحكــت ضحــكاً ما ضحكــت قبله، وتكالمنا حتى كأنه لــم يقل قبيحاً، وحتى كاني لم افرط عليه»(م.ن،ج٢،ص١٢٥).

وكذلك اشــار الى البخيل الذي يستغل اي دعوة للطعام ويتمتع بهــا لأنها من مال غيره وانه في داره شــح ويحاول ان يستفاد من كل شيء كما يشير الجاحظ الى ذلك من نصائح البخيل لعياله قائــلاً: «وكان يقول لعيالــه ألا تلقوا نوى التمر والرطب، وتعــودوا ابتلاعه وخــذوا وحلوقكم يتســوقه، فان النوى يعقد الشــحم في البطن، ويدفــئ الكليتــين و بذلــك الشــحم، واعتبروا ذلــك بيطــون الصفايــا، وجميــع مــا يعتلف لنــوى، واللــه لــو حملتم انفســكم عــلى البزر والنــوى، وعلى قضم الشــعير، واعتلاف القت، لوجدتموها سريعــة القبول ! وقد يأمل الناس القــت قداحــا، والشــعير فريكا، ونــوى البسر الاخضر، ونوى العجــوة »(م.ن،ج١،ص٧٩).

وهــذا التصوير يتمثــل ما بين الخــداع والحيلة في الضيافــة التــي لا يرفضها صراحــة . الا اننا نــرى هنــا البخيل يكــون في اكــرم ممــا تتوقع من اقتصــاده، اي هذا نمــوذج للبخيل المقتصد والمضيف وهــذا يمثل ظاهرة معقــدة لها اثرها عــلى المجتمع [٥]، وهذا الامر مســتحيل ان يكون عنــد البخيل مضيافــاً كما صــوره الجاحظ [٦]، اي انه صــور الحيلة عند البخيــل الذي يحاول من خلالها ابعــاد الضيوف ما نقله عن صاحب الدكان كما يقول « قالوا: وكان له دكان لا يســع الا مقعــده، وطبقيــا يوضع بين يديــة، وجعله مرتفعــاً، ولم يجعل له عتباً، كــي لا يرتقي اليه أحد، قالــوا: فكان اعرابي يتحــين وقته، ويأتيه عــلى فرس، فيصير كأنه معه على الدكان . فأخذ ديــة وجعل فيها حصى، واتــكأ عليها . فاذا رأى الاعرابــي قد اقبل، أراه كانــه يجول متكأه، فإذا قعقعــت الديه بالحصى نفــر الفرس قالوا: مالم يــزل الاعرابي يدينه، ويقع هو به حتى نفر منه فصرعه فكان لا يعود بعد ذلك اليه»[٧].

وهنـاك نظـرة خاصـة للجاحـظ عـن البخيل عندمـا يكون صحنه رغم انـه يتلذذ من موائد المضيفين لاسـيما انه وقع صحنـه لبخيل آخر أو شـخص وهو صحنـه للمفارقـة. كما يقول الجاحظ «وكنا عند دواد بن ابي داود بواسـط، ايـام ولايته كسـكر فأتتـهُ من البـصرة هدايا فيها زقاق دبس، فقسـمها بيننا، فكل ما اخذه منهـا الخزامي اعطى لغـيره، فأنكرت ذلك من مذهبه، ولم اعرف جهـة تدبيره، فقلت للمكي: قـد علمت ان الخزامي انمـا يجزع من الاعطاء وهو عـدوه، فاما الاخـذ فهو ضالتـه وأمنيته، وانـه لـه اعطـى افاعـي سجسـتان، وثعابين مـصر، وحيات الاهـواز، لأخذها اذا كان اسـم الاخذ واقفـاً عليها فعسـاه اراد التفضيل قال: أنـا كأقبـه وصداقتي اقـدم، وما ذلـك به وان هنا امراً ما تقع عليـه، فلم يلبث ان دخل علينا فسـألته عن ذلك فتحصر قليلاً ثـم باح بسره، قـال: وصنيعته اضعاف ربحـه، واخذه عندي من اسـباب الادبـار قلت اول وظائفـه احتمال الشكر، قال هذا لم يخطر لي قط على بال، قلت: فهـات اذاً مـا عنـدك»(م.ن،ج١،ص٤٨).

وهذا حال مابين الحالين في بيان ما يكون عليه التمثيـل كما يقول الجاحـظ«... لو رأيت رجلاً يفسد طين الردعة، ويضيع ماء البحر، لصرفت عنة وجهـي! فـاذا كان اصحـاب النظر واهل الديانة والفلسـفة هذه سيرتهم، وهكذا ادبهم، فمـا ظنكم بمن لا يعد مـا يعدون، ولا يبلغ من الادب حـين يبلغـون»(م.ن،ج١،ص٦٠).

ويـرى في قصتـه محمد بن عـلي المؤمل الحال الواقـع ما بـين اطعـام الطعام وانفـاق المال وقياسـاته بين الكثرة والقلة كمـا يقول «قلت لمحمـد بن ابـي المؤمـل: اراك تطعـم الطعام وتتخـذه، وتنفـق المال وتجود بـه، وليس بين قلـة الخبر وكثرته، كثير ربـح، الناس يبخلون من قل عـدد خبـزه، وراو ارض خواته، وعلى ان ارى جماجم من يـأكل معك، اكثر من عدد خبـزك»(م.ن،ج١،ص٧٠).

فهـو هنا صور لنا ما بين لؤم البخيل الشـكور والـذم حمـداً كمـا يقـول«... نـرضى لـك من الغنيمـة بالإيـاب، ومن غنـم الحمد والشـكر، بالسـلامة من الذم واللـؤم!! فزد في عدد خبزك شيئاً، فأن بتلك الزياة القليلة، ينقلب ذلك اللؤم شكراً، وذلك الذم حمداً اعلمت أنك لست تخرج مـن هذا الامـر، بعـد الكلفـة العظيمة، سـالماً لا لـك ولا عليـك؟ فانظـر في هذا الامـر رحمك اللـه»(م.ن،ج١،ص٧١). والبخيـل المنتـصر الذي يسـتغل كل الاوقات لصالحـه، كما يقول الجاحظ« وكان ابو سـعيد هذا مع بخله اشـد النـاس نفسـاً، واحماهم انفا، بلـغ من امره في ذلـك، ومن بلوغه فيه انه اتى رجلاً من ثقيف يقتضيـه الـف دينـار، وقـد حل عليـه المال، فـكان ربما طـال عنـده الجلـوس، ويحضر عنـده الغـذاء، فيتغـذى منـه وهـو في ذلـك يقتضيـه...»(م.ن،ج٢،ص١١٧).

وصـور لنا الجاحـظ البخل لدى النسـاء الذي يختلـف في بعض احواله عـن بخل الرجال كما يقول في قصة بخل ليلى الناعطيه التي سـمعت قول الشـاعر في ثوبها الذي رفته قائلاً:

البس قميصك ما اهتديت لجيبه

فاذا أضلك جيبه فاستبدل

فقالت: أنــي اذا لخرقاء، أنا والله احوص الفتق، وفتــق الفتــق، وارقع الخــرق وخــرق الخرق»». (م.ن،ج١،ص٣١) .

واشار ايضاً الى دور البخلاء في الاصلاح والمذاكرة فيه، كما يقول«.. وصنع ابو سعيد المداتي اعظم من ذلك ؟ اصطبغ من دن خل، وهو قائم حتى مني ولم يخرج منه قليلاً ولا كثيراً، وكانت له حلقة تعقد فيها اصحاب الغنية والبخلاء الذين يتذاكرون الاصلاح فبلغهم ان ابا سعيد بأن الحربية في كل يوم، ليقتضي رجلاً هناك خمسة دراهم فضلت عليه، وقالوا: هذا خطا عظيم، وتضييع كثير وانما الحزم ان يتشدد في غير تضييع. وصاحبنــا قد رجع على نفســه بــضروب من البلاء فاجتمعوا عليه على طريق التفرغ له، والاستفادة منه، قالوا: نراك تصنع شيئاً لا نعرفه، والخطأ منك اعظم منه من غيرك، قد اشكل علينا بهذا الامر، فأخذنا عنه، فقد ضاقت صدورنا به...»» (م.ن،ج١،ص١١٣).

وبــذا يكون الجاحــظ في كتابه هذا قــدم لنا صورة فنية للبخــلاء في كتابــه في كل اتجاهاتها واثرها الاجتماعي لعصره.

***الهوامش:**

(١)الجاحــظ:: ابوعثمان عمرو بن بحــر، كتاب البخلاء، (بغــداد، دار الشــؤون الثقافيــة العامــة، ١٩٩١ م)، ج١،ص٥.

(٢)الدكتــور طه الجاجري، الســخرية في الادب العربي، ٢٠٠٦ م، ٤- الجاحــظ ؛ الفصــل: د. ســمر روحــي، ادبــاء وشــعراء – اســلوب الجاحــظ، ٢٠١٣م " شــبكة المعلوماتية".

(٣)الجاحظ، كتاب البخلاء، ج١، ص٣.

(٤)طنطاوي:د.نعمان،قــراءة في نص من «كتاب البخلاء للجاحظ» حكايات ابي القمام،القاهرة،كلية الآداب،قســم العلــوم النسانية،٢٠٠٨م،"دراســة وافيــة عــن هــذا الموضوع".

(٥) دوكلاس: فــدوة مالطــي، بنــاء النــص التراثــي، ط١(القاهرة، الهيئة المصريــة العامة للكتاب، ١٩٨٥م)، ص٤٦.

(٦)الخوجــة: محمــد ابراهيــم خالــد، المفارقــة في ادب الجاحظ/ البخــلاء انموذجا، الجامعة الاردنية، ٢٠٠٦م، ص٢٩.

(٧)الجاحظ، البخلاء، ج٢، ص١٣١.

The social aspects

in the Book of BUkhla by Al-Jahez

(An analytical study)

By: Dr. Ahlam Mohsin Hussein

Abstract

We conclude that Al-Jhahez was distinguished in his style in which he presented his book in terms of his plains, his morals and literary decency, and that he was encyclopedic when he presented the texts of this book with their social impact in the events of this book which he studied and analyzed. Their sources in this study are available in the stories and the news industry that took place in the philosophies of the scouts in the stories that were most supported and supported by realistic characters in his time, that is, he showed us aspects of social deviations within the category has maintained its character and inherited values Which was influenced by social and social, that is between the generosity and generosity is one of the values of the Arabs and their original origin in a local language with a dialogue between the characters, so his style in the presentation of social reality a unique and unique way, through which a collection of knowledge that facilitated the researcher dealing with texts This book, which is balanced in terms of accuracy in the performance of language and order of ideas and the most influential personality in the community in the first place.